المعهد الثانوي الخاص النخبة – مسألة الخصوصيّة و الكونيّة

هل يجعل الإختلاف الحوار مستحيلا؟

مراجعة وإعداد:

أحمد الملّولي

الصحبي بوقرّة

«أن نتكلّم هو أن نولد مرّة ثانية»
إ.موران

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

مرحلة البناء

لعلّ المشكل الحقيقي الذي يواجهنا اليوم هو الانطلاق –للتفكير في المسالة–من راهن متوترّ حلّ محل الحوار فيه إما خطاب العصا أو خطاب الصمت، و ما يزيد المشكل تعقيدا هو ما يسم الواقع الإنساني اليوم من تعدد واختلاف و تنوع ، ولكن وعينا بالقيمة الحقيقية لفلسفة الحوار أو لفلسفة تتخذ من الحوار منطلقها هو الذي يدفعنا للتفكير في مسألة منطلقها متوتر و راهنها تشعل الأزمة فيه حطب الإرهاب ، إذ يمكن للحوار أن يلعب دوراً حيوياً وهاماً في خفض مثيرات العنف والإقلال من احتمالات لجوء الأشخاص إلى العنف كوسيلة للتعبير عن أنفسهم أو كطريقة لحل مشكلاتهم ، ورغم أننا على كل المستويات وفي كل المناسبات (تقريباً) نتحدث عن أهمية الحوار ليس فقط كوقاية من العنف وعلاج له وإنما لتحسين نوعية وجودنا الفردي والاجتماعي والإنساني، رغم كل هذا ، فإن لدينا مشكلات عميقة وعديدة تتجاوز المعنى والدلالة لتفكرّ في العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" و بين "النحن" و "الهم"، و عمقها أو تنوعها إما يكون بسبب انسداد قنوات الحوار (كلها أو بعضها) ، أو بسبب شيوع أنماط غير صحيحة للحوار[1] بيننا . وكلا السببين يؤديان إلى تعطيل عملية التواصل الصحيحة مع ما يتبع ذلك من مشكلات في العلاقات يكون العنف أحد إفرازاتها. و لنكشف أن المسألة لا تختزل في تحديد دقيق لدلالة الحوار سيكون استشكالنا للدلالة هو في الحقيقة استشكالا للعلاقة بين واقع الاختلاف ومطلب الحوار، فهل الإختلاف الثقافي عائقا أمام حوار ممكن؟ و إذا كان الاختلاف يحيل على الكثرة و منطق الخصوصية فإن السؤال سيتحوّل في جوهره تفكرّا للعلاقة بين الخصوصية و الكونية، فهل يقتضي القول بالخصوصية الانغلاق على الهوية الثقافية؟ وهل يعدّ الحوار باعتباره انفتاحا على الآخر تنازلا عن مقوّماتنا؟ وهل من معنى لحوار نعترف فيه بآخر لا يعترف بنا؟

مرحلة البلورة

للحوار، في الدلالة العامة معنى المجاوبة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة والتحاور والتجاوب؛ وهو بهذا المعنى تبادل أفكار بين فريقين أو أكثر في إطار موضوع ما، حول قضية ما، بغية الاتفاق على صيغة حل أو اتفاق أو تسوية في شأن القضية التي هي مدار الحوار. و لعلَّ أهم المعاني التي يقوم عليها الحوار هي تجاوز الأفكار القبْلية، والتي غالباً ما تشكّل عائقاً في وجه الغاية الأساسية من انعقاد الحوار. وينبغي للآليات العامة التي تجعل الحوار يمضي بالمتحاورين إلى غاياتهم المنشودة أن تلحظ مبدأ التكافؤ والقبول والتوازن فيما بينهم. ذلك أن الحوار في أحواله ومبانيه وغاياته قائم على الاعتراف المتبادل، وحق كل فريق، سواء كان فرداً أو جماعة، في المشاركة المتساوية المتكافئة في تقرير الصياغة النهائية لشكل ومضمون المسألة التي يجري الحوار بشأنها. وعلى هذا الأساس فإنَّ استقامة الحوار على مبدأ التوازن و التكافؤ والاعتراف والاحترام والتسامح يفترض مراعاة جملة من الشروط والقواعد والآليات يمكن إجمالها على النحو التالي[2]:

---

[1]- سأقترح في هذا العمل أنماطا من الحوار اعتبره أنماطا شاذة أو مغالطية، و سأبين كيف أن المشكل لا يمكن في مجرّد كونها شاذة و إنما في كونها تحيل على أنماط شائعة، إلى درجة أن البعض عدّها طبيعية.

[2]- ريتا أيوب، "شروط الحوار"، ملخص اللقاء الثالث حول "الأساليب العملية الآيلة إلى تشجيع الحوار"-معهد الدراسات الإسلامية في جامعة القديس يوسف.

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

الحـــــوار الصحّي [ما يجب أن يكون]

أولاً: وجود علاقة أفقية بين المتحاورين

الحوار ليس قراراً يُفرض على أطرافٍ عليهم التجاوب معه بدافع واجب ما أو إرادة خارجة عنهم، بل إن الحافز إليه يُفترض أن يكون نابعاً من الذات، .إنَّ الرغبة بالحوار، هي رغبة باكتشاف مستمر للذات من خلال الآخر، بالتوازي مع اكتشاف مستمر وغير نهائي للآخر.

نلاحظ بالنظر لهذه الآلية أو الشرط ضرورة الاستعداد للحوار الذي يسبق أي حوار.

ثانياً: انفتاح الأنا على الآخر

هو النظر إلى الآخر، له وجوده، وشخصيته، له ميزاته السالبة والموجبة. بما يحمله معنى النظر من دلالة الاعتراف والاهتمام، إذ ينبغي أن يكون لديّ القناعة الكاملة، بأنَّ الآخر هو كيان كامل منفصل عني. إن لم أستطع النظر إلى ذلك الآخر من هذه الزاوية، فإني أكون كمن يحاور ذاته، أو كمن يحاور كائناً أبتكره وفق ما يريد.

← هذا الشرط يراهن على قيمة الاختلاف من جهة التمايز لا من جهة التميز.

ثالثاً: النظر للآخر كآخر

أن أحترم الآخر، هو أن أراه حيث هو، خارجاً عن أي اتهام معلن أو كامن في داخلي. وبالتالي أن أنظر إليه خارجاً عن أي نيّة بتغييره فأحرره بذلك من أية نظرة عنيفة كانت أم سلسلة يمكن أن أسجنه مسبقاً فيها. أن أحترم الآخر، هو أن أقبل أن له الحياة التي أعطيت لي دون زيادة أو نقصان، فألتقيه حيث هو، وبالتالي أكون بذلك قد دعوته كي ينظر إليَّ من حيث أقف، لا من حيث يريد لي الوقوف، أو يفترض أنني أقف.

لا أستطيع أن أرى ما يراه هذا الواقف أمامي، إلا إذا حاولت أن أرى من زاويته، وبالتالي، لا يستطيع هذا الذي أتحاور وإياه أن يرى ما أراه، إلا إذا ساعدته كي يرى ما أراه من الزاوية التي أقف فيها.

خامسا: رفض الاعتقاد في امتلاك الحقيقة

وهو الابتعاد عن التفرُّد بالرأي، كي لا يصبح الحوار "مونولوجياً"، يحاور فيها الفرد مرآة صامتة أمامه. فالحوار هو حديث بين كائنين أو أكثر، يكملان معاً صورة واحدة. كل طرف يمتلك جزءاً من الصورة، فعندما نتحاور، علينا الانطلاق من أن كلاً منّا يمتلك جزءاً من الحقيقة. فالحقيقة تأتينا حين نقترب منها بالتكامل، وعبثاً نجهد كي نصلها ونحن نقف في زاويتنا، فالالتصاق بالزاوية يسجننا في الزاوية، يعمي عيوننا عن المشهد الآخر من الحقيقة، عن الألوان الأخرى للحقيقة.

من هنا نرى أن أحد شروط الحوار هي التواضع و الجرأة التي تسمح لي بأن أقبل أن ما لدي ليس إلا الجزء، وما لدى الآخر هو جزء آخر.

سادساً: القطع مع الصورة المسبقة للآخر

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

لا نستطيع القول بأننا نتحاور كطرفين، إن نحن نظرنا إلى الآخر انطلاقاً من تعميم، يُخرجه من فرادته، بذلك، أساعده كي ينظر إليّ خارجاً عن الكتلة التي أنتمي إليها .فالصور المتراكمة عن الآخرين، التي يساعد على رسمها غالباً أحداث عشناها مع أفراد تنتمي (باعتقادنا) إلى نفس المجموعة التي ينتمي إليها هؤلاء الآخرون، هي سجون لا نستطيع بسهولة أن نخرجهم منها. فكل لحظة حوار مع الآخر، هي لحظة نظرة جديدة إليه، تجعلني أراه مولوداً في كل لحظة.

← إخراج الآخر من التعميم، ومن الصور التي رسمناها عنه أو رسمها عنه آخرون، هو خطوة أولى في سبيل تحرير ذاتنا من سجن الرؤية المعتمة بما يؤدي إلى تحرير الآخرين من سجن نظرتنا .

بهذا المعنى نفهم الفرق بين الحوار و الجدل و بين الحوار و النقاش، فالجدل طريقة كلامية تقوم على قاعدة "إن قلتم كذا... قلنا كذا"؛ فالجدال سالب ينهض على أرض التناقض، والتضاد، والإبلاغ، والإرسال، والاستجواب، والمحاججة، ودحض ما لدى الآخر من أفكار، وافتراض النقصان والضعف والبهتان والتهافت في اعتقاداته. و النقاش لا يشارك بالضرورة الحوار في أهدافه، و لذلك نقول أن في كل حوار نقاش و لكن ليس كل نقاش حوار،إذ الحوار موجب بالضرورة، كما يجري الحوار ضمن سيرورة متكافئة ومتوازية تتكامل شيئاً فشيئاً ضمن دائرة ينشئوها الطرفان المتحاوران هي في حقيقتها حصيلة منطقية لأفكارهما معاً.

من المفيد أن نعود من جديد كما انطلقنا إلى الراهن لفهم كيف أن مطلب الحوار هو طلبا للكلّي و كيف أن المسألة من جهة الاختلاف لا تتعلق بمجرّد اللقاء بالآخر و إنما كذلك للقاء الذات و تحديد الهوية.

فيتميز الراهن بظهور أقليات و مجموعات تمتلك خصوصيات عقائدية و فلسفية و دينية و أخلاقية ودينية و خصوصيات ثقافية مختلفة، و لعلّ هذا ما يفسر تعدد واختلاف طرق العيش و السلوكيات و الممارسات، وفي ظلّ هذا الراهن يتنزل سؤال تايلور عن الهوية: كيف يمكن الاعتراف بالاختلاف؟ كيف يمكن أن تتعايش هذه الأقليات بالرغم من اختلافها فيما بينها؟ ما هو المبدأ السياسي القادر على احتواء هذا التنوع في ذات الفضاء؟ أي المبدأ القادر على ضمان التعايش من جهة و على فرض الاعتراف بالاختلاف من جهة ثانية؟
ينقد تايلورمقترح [جون رولس] و [يرغن هبرماس] في ما يسمى مبدأ الحد الأدنى المشترك الذي ينتقل من الكثرة إلى الوحدة، ويحتكم هذا المبدأ إلى العدل و حقوق الإنسان [رولس] أو التواصل و الوطنية [هبرماس] ويكشف- في دفاعه عن الخصوصية- كيف أن هذه المبادئ و النماذج القائمة على الكوني و على التصوّر الكانطي لاستقلالية الذات غير قادرة على استيعاب الاختلاف على الاعتراف بتنوع الهويات و ينجر على الاحتكام إلى هذه المبادئ جملة من المزالق الإيتيقية و السياسية. هذا الموقف النقدي الذي ينطلق منه تايلور يدفعه لمساءلة الهوية من جديد و يدفعه للقول بأن الكونية هذا المبدأ الذي ورثناه من فكر الأنوار لا يتماشى مع راهن الاختلاف.

> C.Taylor : « **l'universel ne peut plus répendre a la demande et au besoin de la reconnaissance de differentes identité culturelles.** »

باسم الكونية و مبدأ الحيادية يقع تجاهل الهويات المختلفة و الأقليات الاثنية، و إذا كانت الهوية تحيل في جوهرها على هذا "الاطار" الايتيقي-الذي من خلاله تدرك الأنا ذاتها و تضفي معنى على العالم- فإن الكوني يجرّد الإنسان من هذا الإطار ، أو يستعيض عنه بإطار سياسي يقتلعه من انتماءه الثقافي ليبقيه مواطنا. و على هذا الأساس يجب أن نتحررّ حسب تايلور من النموذج الليبرالي باعتباره نموذجا يقصي الاختلاف و يفرض نموذج المماثلة و التطابق، فمفهوم الإرادة العامة الذي يمثل

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

جوهر الفكر التعاقدي الروسوي يمثل الوجه الناصع لاختزالية و تضييق الكلّي السياسي، بل يمثل اللحظة التاريخية لموت "الإطار" الثقافي.يكشف تايلور أنه ليس من الممكن التحرر من الكوني إلا في ظل إدماج فكرة الاعتراف و هو إدماج يفصل بين الشرف بما فيه من دلالة تقرّ ضمنيا بالتفاضل؛ و بين الكرامة بما هي دلالة تقر ضمنيا بالمساواة.

C.Taylor : *« la politique de la différence croît organiquement à partir de la politique de la dignité universelle ».*

الهوية إذا كما هي انتماء هي إنشاء، و هي بهذا المعنى تتشكل و تتحدّد بفضل تدخل الحوار أو ما يسميه تايلور العلاقة الحوارية التي تصنع بفضل جملة التوافقات أو"الملائمات" أو "التسويات" les accommodements .

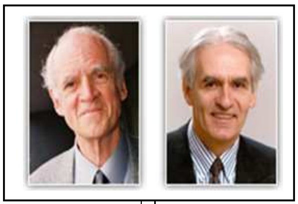

C.Taylor : **La reconnaissance = "acceptation de valeur égale". = "conversation" entre diverses identités : "cette identité devrait se forger en conversation avec d'autres et implique une certaine reconnaissance"**

[لجنة بوشار–تايلور[3]]

* لقد اعتبر شارل تايلور بأن الحوار المتبادل هو طريقة" إقناع" تشوبها الكرامة في تعامل كافة الأطراف والتي وإن اختلفت آراؤها، فإن مصلحة مشتركة تجمعها، تكمن في البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن لعقل أن يتوصل إليها عبر جوٍّ ...ل". الحوار ليس دفاعا عن تعدد الثقافات فحسب multiculturalisme و إنما عن الفضاء البين ثقافي ...ف يعبر عن حاجة إنسانية و يقوم الاعتراف على تصور حواري مع الأنا إذ "تتحدّد هويتي من خلال ...خرين"

تايلور"...العلاج الوحيد هو إيجاد، في كل من هذه الحضارات، الأشخاص القادرين على التحاور، على الكلام. يجب ربط الاتصالات والتأييد المتبادل، بهدف إعادة متطرفينا إلى صوابهم، لأن من البديهي أن المتطرفين يوجدون في كلا الجانبين "

تايلور:" إبراز الأخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلا، تشتبك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف و ذاك بان كل الآخرين هم ضدنا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الآخر. "

مستويات الحوار :

الانتماء – حوار داخلي [الأنا و الأنا]

الالتزام – حوار خارجي 1 [الأنا و النحن]

الإنشاء – حوار خارجي 2 [الأنا و الهم]

أهداف الحوار :

3- يمكن العودة للموقع الرقمي **www.accommodements.qc.ca** لقراءة نموذج من الأسئلة التي طرحتها لجنة بروشار/تايلور على الجمهور.

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

الفهم و التفهّم

- الإقناع و الاقتناع
  - الهدف الجزئي
- التفاهم و التعايش
  - الهدف المرحلي
- التكامل و الارتقاء
  - الهدف الكليّ

الحوار المرضي [ما هو شائع]

حوار

- **المناورة**: الثرثرة و كثرة الكلام
- **الحذلقة**: الشكل و ليس المضمون
- **التعجيز**: الكشف عن المآخذ و الهينات
- **السلطة**: اسمع و استجب
- **السطح**: لا تقترب من الأعماق فتغرق
- **الصمت**: التجاهل المكايدة و العناد

حتى لا يتحوّل حديثنا استعراضا للأنماط المرضية للحوار سنكتفي بما تقدّم مع التذكير بأن ما تقدم هو الموجود و أن ما نفكر حقيقة فيه هو المنشود، و أن غيابه لن يثنينا عن طلبه أو تحديد شروطه و مقوّماته.

الحوار الصحّي إذا هو ذاك يقتضي السير سويّاً، في طريق التعقُّل و الفَهْمِ و التفهُّم و التفاهُم. من هذا المنطلق، تصبح غاية كلِّ حوار، هي السير إلى الأمام، في طريق الكشف عن الحقيقة بقدر الإمكان؛ من خلال ما يحجُبُها من رواسب الدغمائية والتعصُّب أو الريبية والتنكُّر. و نحن لا ننكر وجود بعض المزالق التي تعطلّ السير نحو حوار ثقافي مبدع و خلاق، إذ ليست المزالق إلا استنباطا لواقع الحوار المرضي الذي قدمنا عينات عنه، بالإضافة إلى أن كل واحد من الكيانات الثقافية المتواجدة اليوم، يكاد

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

يكون مستغلقا ومغلقا على نفسه، إلى حد يبدو فيه أن الاختلاف بين هذه الكيانات الثقافية، هو اختلاف جذري لا سبيل إلى تجاوزه. و أنه بدلا من حوار ثقافي إيجابي و منتج، لا نجد في نهاية المطاف، إلا التنافس و صراع المصالح، إلا إرادة الاستعلاء وبسط الهيمنة، و لغة التعصُّب و العنف، تطغى سرا وعلانية،على العلاقات الثقافية السائدة!

وفضلا عن ذلك، يفرض على بعض الكيانات الثقافية أو الخصوصيات – أمام هيمنة كوني إيديلوجي أو عولمي– خيارا واحدا: إما الاندماج والانصهار التدريجي في منظومة جديدة من القيم و مبادئ ما يُسمَّى بالنظام العالمي الجديد[4]، و إما التقوقع و الانكماش المُفضي مع مرور الزمن إلى العزلة المميتة على عكس التفككّ القاتل[5]. و هل نبتدع جديدا عندما نقول، إن العولمة وعلى الأقل، كما ندركها حاليا و نشهد آثارها، تعمل على تكريس الثنائية و التمزُّق والانشطار في الهُوِيَّات الثقافية الوطنية. هل من معنى إذا للحديث عن حوار حقيقي او صحّي اليوم في زمن لا يعد فيه الكوني العولمي إلا بالمزيد من التفكك و التفسخ و السطحية والابتذال أو مزيد من العنف و القتل و الإرهاب؟ بل أكثر من ذلك هل من معنى للحديث عن ثقافة هويتها مكانتها السياسية وإطارها القيمة الاقتصادية؟ والعكس بائس و شقي هل من معنى لسياسة يعاد تشكيلها وفق جغرافيا ثقافية[6]؟

والعولمة ليست هي المشكل الوحيد الذي يجب أن نواجهه اليوم، بل يجب أن نواجه نرجسية الآخر الثقافي، فالعقل الغربي يدافع عن العقل الكوني بالقدر الذي يسجن نفسه في ثقافة تضيّق على العقل و تتعامل مع الآخر الأنا كغيرية أي كآخر لا يرقى إلى مستوى الندّ[7]، وفي نظر صوفي بسيس، تقوم أسس الثقافة الغربية، وخاصة زمن الحداثة، على مبدأ نفي الآخر، وعلى منهج الشك في كلّ ما ليس أنا ، فمنطق الأنانة كما أفرز الثنائية افرز نظرة الاستعلاء ، و قيم الحداثة ، التي تُصَدَّرها هذه الثقافة للفضاءات غير الغربية، لا تخلو من مظاهر التوجُّه الاستعلائي، سواء تمت باسم الدين أو باسم المقدس، أو الأخلاق،أو الحداثة،أو القيم الديمقراطية أو باسم حقوق الإنسان. و غير بعيد عن هذا السياق ، يشير الباحث الإنجليزي توماس ماك إفيلي، Thomas MC Evilley، في كتابه: الهويات الثقافية في أزمة[8]، إلى أن الهوية الثقافية الغربية ذاتها، تعاني من أزمة مسكونة بعقدة التفوُّق والاستعلاء على ما سواها من الهُويات الثقافية الأخرى؛ و من منطلق هذا التوجُّه الاستعلائي للثقافة الغربية عموما، تُصِرُّ كبرى الدول الغربية المهيمنة في عالم اليوم، على مصادرة حق الآخرين في الاختلاف. و على احتكار الحق، في بلورة القيم الحضارية و الكونية لنفسها، وتُنْكِرُ هذا الحق على الآخرين. فالغرب المتقدم، وعلى ما بات ينكشف لنا باستمرار، غدا عاجزا عن الاعتراف بالآخر، إذا لم يُرجِع إليه هذا الآخر صورتَه و يعكسها في مرآته. و أي خروج عن قسمات ومعالم هذه الصورة، يعدّ تخلُّفا أو همجية [9]، و بذات المنطق تحدث المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، ليقول إن" الإسلام هو الحضارة

---

[4]- هذا ما دفع البعض اليوم للتشكيك في النظام العالمي الجديد باعتباره الوجه المعاصر لفكرة المركزية الثقافية.

[5]- يميّز جان بودريار في كتابه السلطة الجهنمية بين الثقافات التي ماتت في خصوصيتها واعتبر أن هذا موت طبيعي،و بين الثقافة التي تموت من فقدان كل خصوصية، و هذا هو الموت العنيف على حدّ عبارة هوبز، و هذا ما يدفعنا إلى التمييز مع بودريار بين ثقافة ماتت و ثقافة قتلت.
[يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (العالمي و الكوني) ص175]

[6]- طرح صامويل هنتجتون في كتابه صدام الحضارات مشكل انخراط السياسي في الثقافي، و هو ما يفسرّ حسب رأيه الإنتقال من "سؤال من أنت ؟إلى سؤال إلى أي جانب أنت؟" و "على كلّ دولة أن تجد اجابة ، إجابة تحدد هويتها الثقافية، و مكانتها في السياسة العالمية، كما تحدد أصدقاءها و أعداءها" [يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (السياسي و الثقافي) ص171]

[7]- Sophie Bessis, L'Occident et les autres, Histoire d'une suprématie , Editions La découverte , Paris, 2001

[8] - Thomas MC Evilley , l'Identité culturelle en crise, Traduction française, Editions Jacqueline Chambou, Paris, 1999

[9]- كشف مونتانيو في المقالات كيف يكون ما لا يتفق مع الصورة أو العادة همجيّة أو وحشية إذ يقول لحظة تحدث عن سلوكيات الأقوام البدائية بأمريكا الجنوبية:" لم أجد في كلّ ما ق{م لي همجية أو توحشا عند هذه الأمة أللهم إلا إذا كان كل واحد يسمي همجيا ما يتفق مع عوائده".
[يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (الهمجية) ص138]

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

الوحيدة التي ما زالت عصية على الاحتواء الغربي و على "الحداثة". و على نفس المنوال والنغمة، يعزف مفكر أمريكي آخر ذائع الصيت، صامويل هنتنجتون، و يكتب "إن الصحوة الإسلامية هي رد فعل ضد الحداثة والتحديث و العولمة"؛ ولكن المغالطة في هذا المنطق بينة إذ الرفض في جوهره ليس لقيم الحداثة أو القيم الإنسانية و إنما هو رفض لقوى الهيمنة والاستغلال.

و ليس تقريظنا للاختلاف حبا في الاختلاف و إنما اعترافا بمكانته؛ و ليس لأننا نضفي عليه قيمة مطلقة، فالاختلاف من أجل الاختلاف، أو الاختلاف المطلق معناه تشجيع التفرقة والتنازع؛ معناه تشتيت لا نهاية له للآراء والمعتقدات، كل منها منغلق على ذاته رافض للآخر. و في تقديرنا، إن المهم هو نوعية التأويل والاستثمار الممكن إعطاؤهما لظاهرة الاختلاف الثقافي. فإذا نحن اقتصرنا فقط على إبراز الاختلافات الثقافية، و إذا نحن أصررنا على اعتبار تلك الاختلافات، ذات طابع مطلق و لا سبيل إلى التوفيق بينها، و إذا نحن اكتفينا فقط بجرد الصعوبات و العراقيل المنتصبة أمام مبادرات الحوار بين الثقافات، فإننا في نهاية المطاف، سنجد أنفسنا في عالم لا تواصل فيه و لا حوار؛ عالم كل طرف فيه يحرص على ألا يتكلم سوى لغته الخاصة. نحن نعتقد أن بمقدورنا تغيير وجهة نظرنا إلى واقعة الاختلاف الثقافي بحيث تصبح أكثر إيجابية. و في هذا السياق يمكننا القول، إن احترام حق الاختلاف الثقافي مطلب مشروع، لأنه حق من حقوق الإنسان، الهدف منه مقاومة الاستلاب الثقافي، والحفاظ على الهوية و على الجذور. و في الوقت ذاته هو الوسيلة الطبيعية للحفاظ على التعدُّد و التنوُّع الثقافي، كمجال خصب للتعاون وللإثراء المتبادل، وإمكانية ديمقراطية بفضلها يمكن إنقاذ ثقافات كثيرة من الاستنساخ و من الانقراض، إننا نُسَلِّمُ بأن ليس هناك مجال للحوار الثقافي إلا مع وجود الاختلاف. فالمفروض أن الحوار الحقيقي، يجري عادة بين أطراف تختلف عن بعضها، في المعتقدات والتوجُّهات والرأي، و يستمد حيويته من عناصر الاختلاف و عدم التماثل. فما جدوى أن يحاور الإنسان مثيله ونظيره الذي يتفق معه في كل شيء ؟ إن الثقافات المتعددة والمتنوعة، المنتشرة في الفضاء الإنساني، يَدين بعضها لبعض ربما بأهم ما يملك. و كل واحدة منها هي في واقع الأمر، حصيلة تمازج و تلاقح. و هذا التمازج والتلاقح، الذي نادرا ما نجد من ينكر طابعه الكوني، يُبين لنا أن الإبداع الثقافي، لا يمكن أن ينمو ويزدهر في بيئة منكمشة على نفسها و معزولة، و إنما هو على العكس من ذلك، يجد حيويته و خصوبته، في تضافر و تفاعل العناصر المختلفة عن بعضها. و ثمة شرط آخر، من الضروري توفُّره لتفعيل أي حوار بين الثقافات، إنه مبدأ التسامح. و لا نشك في أن التحلي بفضيلة التسامح، في معناه الإيجابي، أي في معنى ألاَّ يُنظَر إليه على أنها مِنَّةً و تنازل، بل على أنه اعتراف بحق المغايرة؛ إن التحلِّي بهذه الفضيلة، يمكن أن يساهم في إيجاد أرضية للتعايش و السلام بين الثقافات في عالمنا المعاصر؛ كما يمكن أن ينعِش مبادرات الحوار بين الثقافات، لمواجهة مظاهر الكراهية والتهميش و النبذ والإقصاء، تجاه المنتمين إلى ثقافات ومجتمعات مُعيَّنة. ولا نبتدع جديدا عندما نعيد إلى الذاكرة هذه الحقيقة التاريخية: إن مفهوم التسامح في سياقه التاريخي الغربي، ظهر أصلا في ظروف الحروب الدينية المذهبية[10]، التي فرَّقت دول وشعوب أوروبا خلال فترة طويلة، و إن حمولته الأخلاقية ساهمت في تَمَــثُّلِ وامتصاص حِدَّة وعُنف الصراع بين المذهبين الأساسيين للمسيحية الأوروبية آنذاك: الكاثوليكية والبروتستانتية.إن التسامح من جهة، و اعتماد المنظور المقارن من جهة ثانية، ضروريان جدا لاكتشاف الطابع النسبي لجميع المنظومات الثقافية البشرية، رغم ما قد يكون

[10]- تحدث تزيفيتان تودوروف في كتابه اللانظام العالمي الجديد عن ارتباط مفهوم التسامح بالإرث الديني، و إن اعتبر أنه أصبح مفهوم التسامح اليوم أكثر اتساعا. [في الكتاب المدرسي -شعب علمية- نجد نص التسامح ص 136]

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math

لها من عراقة و عظمة. أما الاعتقاد بالانفراد بامتلاك الحقيقة دون سائر البشر، فإنه يؤدي بالضرورة إلى الاستبداد و التعصُّب الأعمى، ورفض الفكر الآخر جملة و تفصيلا. و إذا كُنَّا نحن المنتمين إلى الحضارة العربية الإسلامية، نؤمن بقوة، بأن منظومتنا هي من أعرق و أغنى المنظومات الثقافية العالمية، فإن من واجبنا كذلك ألا يغيب عن بالنا أنه من غير الممكن لنا تماما، أن نجعل من باقي ثقافات العالم نسخاً من ثقافتنا.

مرحلة الاستخلاص

*إن ثقافة الحوار تنحو بالتدريج، إلى أن تصبح بالنسبة لجميع الدول و الشعوب خيارا ضروريا، ذلك لأن عالم الغد، لا يمكن تشييده فقط على حتمية الصراع و العنف المتبادل بين الثقافات البشرية، نتيجة التقوقع في عُقَــد التفوُّق و الاستعلاء، ونتيجة النزوع إلى احتكار امتلاك الحقيقة ونشرها وتوزيعها. فالعالم قد يتحوَّل إلى جحيم، إذا إنغلقت الخصوصيات في عزلتها القاتلة.

*إن الحوارَ من أجل بلورة قيم كونية تستمد مبادئها من جميع الثقافات البشرية، ممكن و ليس من قبيل المستحيل. و مهما قيل عن تأثير ظاهرة العولمة في إعاقة الحوار بين الثقافات، فلا نظن أن المشكل الحقيقي يكمن فيها بقدر ما يكمن في الإنسان.

*وهناك مجموعة من المفاهيم و القيم، في الأخلاق و الحقوق و القضايا المعرفية، تعتبر قاسما مشتركا بين جميع الثقافات البشرية، وهي مؤهلة للتطوير نحو ما هو أفضل بالنسبة للجميع. كما أن المثل العليا المشتركة بين الديانات التوحيدية، كالعدالة، والتفاهم، والرحمة، و التواضع، و التسامح، والتضامن، و التشارك، و الحوار، و نبذ العنف، ينبغي أن تجمع لا أن تفرِّق، و أن تساهم في التضامن الأخلاقي لا في المواجهات الصِّدامية بين الحضارات" .

*و فضلا عن ذلك، هناك عناصر أخرى يمكن أن تكون بمثابة حوافز إضافية لإنعاش الحوار بين الثقافات، منها تربية الناشئة على حقوق الإنسان، و على حقوق المواطنة، و على أخلاقيات الحوار بين الثقافات.

* حقا إن ثقافة الحوار هي الحل الذي يكاد يكون مفروضا علينا، حتى لو كنا نعتقد في أعماقنا أن هذا الحل ليس بالمعجزة التي يمكِن أن تحل جميع مشاكلنا مع الآخرين، و تُذَلِّل كافة العراقيل و الصعوبات التي تعترض سبل تقدمنا و تنمية مجتمعاتنا.و لكن إذا كان ما قاله كلود لفي ستراوس صحيحا :" أن العالم بدأ بدون الإنسان و سينتهي بدونه" فإننا نقول أن الأصحّ أن لا تكون النهاية بفعل تدخلّ الإنسان، لأنّ المحنة التي لا يد لنا فيها تعدّ قدرا أم التي يكون علّتها الإنسان فإنها الجنون و العدمية...

موقع مراجعة باكالوريا
BAC.MOURAJAA.COM
bac Math